

## كمال الصليبي: تاريخ لها يسمي لبنان

أسعد أبو خليك\*

ليت الصليبي واصل اهتمامه بالشرق الأوسط بدل تاريخ الأردن والمسيحية والتوراة ندرك كم تغير فكر كمال الصليبي وتطور، وكم تغيرت شخصيته، من خلال المقارنة بين رثائه في «السفير» ورثائه في «النهار». «النهار» بالكاد ذكرته، أما الجريدة القومية العربية، فقد أفردت له مساحة واسعة من المراتب والمدايح مع مقالة لطال سلمان على الصفحة الأولى. الأمر غريب لمن يتمتع بذاكرة معاصرة؛ لأن كمال الصليبي كان «نبي» «النهار» في الستينيات وأوائل السبعينيات، وكانت تستفتيه في كل أمور الجمهورية وتاريخها. كان «ملحق النهار» بصورة خاصة يزهو بإطلاقات الصليبي على صفحاته. و«السفير» ما كانت إطلاقاً منبراً للرجل عند انطلاقته. في بداياته، كان الصليبي رمزاً للفكر الوطني اللبناني، وقد عمل مستشاراً أكاديمياً لنادي «الرابطة اللبنانية» في الجامعة الأميركية في بيروت، عندما كان النادي تجمّعاً للأنعزاليين والفاشيّين في الجامعة. لكن كمال الصليبي تغير، وتغير كثيراً. ما عاد الرجل ينتمي إلى الفكر الذي أطلقه على صفحات «النهار». انتقل من ضفة إلى أخرى. لكن الرحلة لم تكن سهلة، ولم تكن ببساطة ما جاء في بعض المراتب التي صورت انتقاله مثل انتقال نقولا فتوش من 14 إلى 8 آذار.

ينبغي أن يُقال مديح في حق كمال الصليبي. الرجل توصل إلى استنتاجات (علمية) تناقض مواقفه التاريخية والسياسية ومنطلقاته النظرية على مدى سنوات، فجاهر بمعارضة نفسه على العن، وكتب تاريخاً يناقض ما بدأه في مشروعه التاريخي للبنان. والمؤرخ الذي كان لسنوات فخراً للفكر الأنعزالي، تحول إلى بطل عند القوميّين العرب واليساريّين في لبنان. لكن بعض رثاء الصليبي شوّه بعض مواقفه؛ إذ كاد يدخله عنوة في 8 آذار. والرجل لم يندب فكره وتاريخه الأولي عن لبنان مبكراً، كما كتب مسعود ضاهر في «الحياة» العمليّة استغرقت منه سنوات، وساعد في تبلورها دور الأحزاب اليمينيّة الطائفية في الحرب الأهلية. مقت الصليبي كل أحزاب اليمين الفاشي اللبناني، بعد اندلاع الحرب الأهلية.

محظوظ من تسنى له حضور صفوف الصليبي في الجامعة الأميركية. أنا درست عنده مادة «تاريخ الجزيرة العربية» في أوائل الثمانينيات، وكان كتابه «تاريخ الجزيرة العربية» (أو «تاريخ للجزيرة العربية»؛ لأنه قال لنا إنّه اختار العنوان كي يؤكد أنّ هناك أكثر من تاريخ للجزيرة) قد صدر لتوّه عن دار «كرافان». الكتاب فريد في سلسلة كتب الصليبي التاريخية؛ إذ إنّه لا يدرج هوامش فيه. قال إنّه أراد من القارئ أن يفترض أنّه استهلك كل المراجع عن الموضوع، وهو بالفعل فعل ذلك بأكثر من لغة. لا تسال الصليبي في موضوع إلا يشفي غليل السائل بجواب مفيد. وكان يجيب بلا تبجج أو ادعاء. كان أسلوبه في التعليم شديداً بكتابتها: أنيق العبارة ووثاقاً من معلوماته من دون غرور. وهو أيضاً راو مشوّق، يمزج بين مصادر عدّة للتاريخ، المكتوبة والشفوية والشخصية. أذكر عندما حدثنا عن رحلته إلى داخل الربع الخالي، وعن معرفته بالفوارق بين المناخات في الجزيرة. لم تذكر مقالات رثاء الصليبي أنّه كان مؤرخاً وعالم آثار معاً. أذكر كيف كان يحدثنا عن تضاريس الجزيرة العربية. وفي ذاك الصف، تعلّمت منه حب كتاب «لسان العرب» لابن منظور. كان يقول إنّه لا يفيد فقط في البحث عن أصل الكلمة ومعناها، بل يفيد في ملء أوقات الفراغ. اكتشفت ذلك عندما ابتعت نسختي من القاموس. وفي جامعة تمرست في تقليد الرجل الأبيض وثقافته، كان الصليبي يحاول التعمق في اللغة العربية وتراثها.

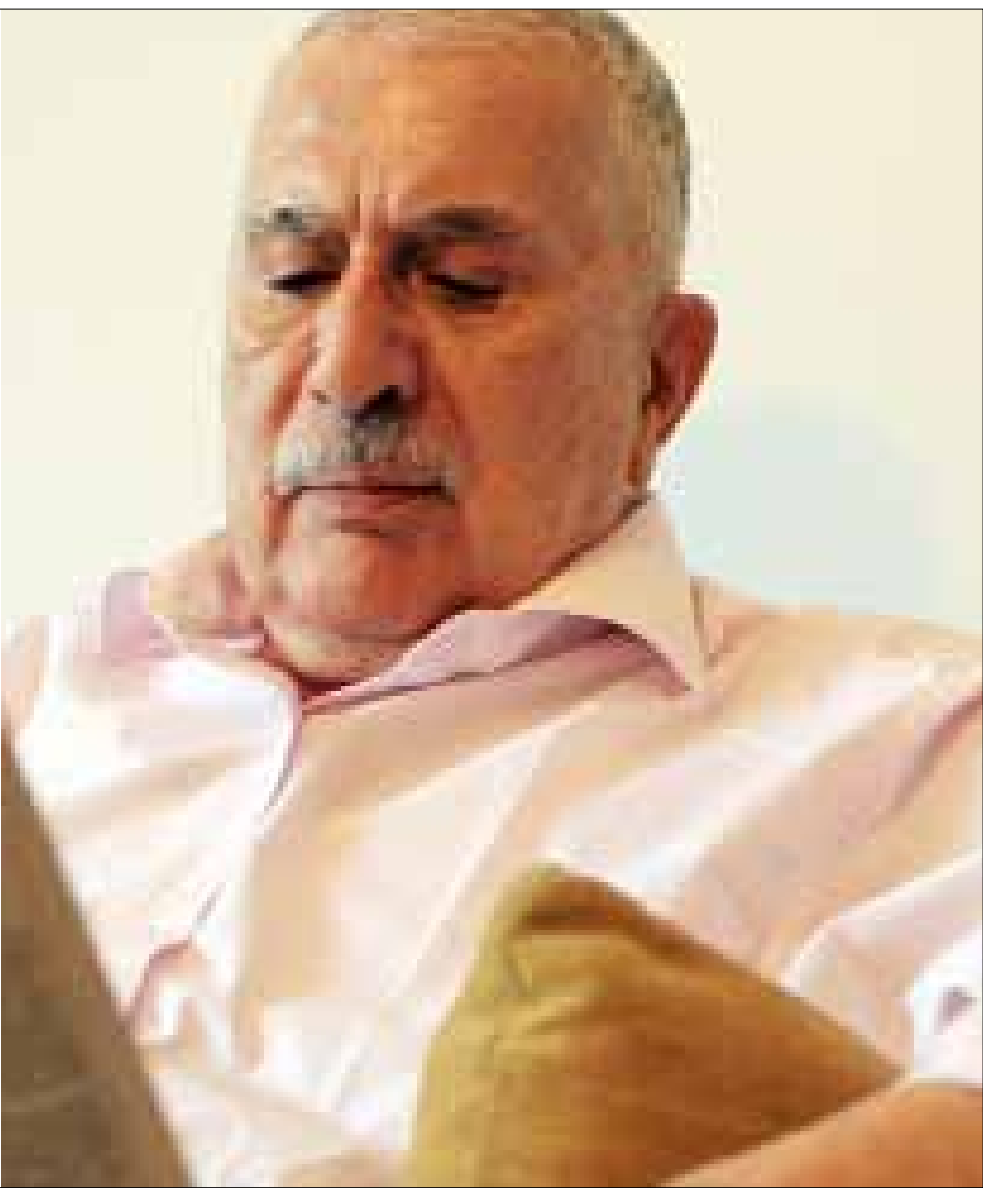
تدرّب الصليبي على أيدي مستشرقين، بمن فيهم برنارد لويس الذي أشرف على أطروحته. وتدريبه الاستشراقي (بالمعنى الإيجابي للكلمة من حيث استعمال لغات عدّة في الأبحاث والتمحيص في المراجع والمزج بين عدد من العلوم الاجتماعيّة في الكتابة) أفاده كثيراً في أبحاثه؛ لأنه كان كثير الاهتمام بأصل الكلمات واشتقاقاتها. أذكر أنني قرأت له ورقة قدّمها في مؤتمر تاريخي عن كلمة «حزرموت». وكان ذلك بداية انكبابه على موضوع تاريخ التوراة. وكتب سيرته الذاتية من دون تكلف أو مبالغات. فيها الكثير عن «رأس بيروت» التي أحبّ. لكن رأس بيروت هي مدينة جامعيّة تعكس الجو الليبرالي الذي يحيط بالمدن الجامعيّة التاريخيّة. والثناء على رأس بيروت فيه من الراحة البورجوازيّة بجغرافيا الصفاء الطبقي. نجحت رأس بيروت في منع امتداد التنوع الطبقي إلى أحيائها، وحافظت أيضاً على تنوع من لون واحد. أما الكلام على فرادة لرأس بيروت، فقد نفى الصليبي نفسه عندما قارنها بمدينة «أوكسفورد» بريطانيا و«كمبردج» أميركا، مع أنّ المقارنة تصطدم بنفور الترابط بين فؤاد السنيرة وحملة جوائز نوبل في المدينتيّ المذكورتين.

لكن بداية كمال الصليبي كانت ولا شك متأثرة، لا بهوى لبنان كياناً منعزلاً ومنفصلاً عن تاريخه فقط، بل أيضاً متأثرة بالهوى الصهيوني لبرنارد لويس، الذي توضّحت نياته السياسيّة أكثر فأكثر، على مرّ السنوات. لا ينخرط برنارد لويس في مشروع أو يباشر عملاً أكاديمياً إلا يكون منطلقه المصلحة الصهيونيّة. نحن نتحدّث عن رجل ناصر عسكر تركياً في الحقبة الاستبداديّة من مظاهر مصلحة إسرائيل (وكانت له جلسات حميمة مع كنعان إفرين).

لم تكن كتابة تاريخ لبنان منفصلة عن كتابة تاريخ محيطه؛ حاول لويس شيخو (العالم المتعصب والمُنكر للحقائق إذا لم تتوافق مع رؤيته الطائفية) ذلك في كتابي «لبنان: مباحث علميّة واجتماعيّة»، كذلك دانت جهود الاستشراق اليسوعي، وخصوصاً هنري لامانس، على رسم متخيّل عن تاريخ لبنان يتوافق مع الرؤية الطائفية لدولة الاستعمار الراعية لنشوء دولة الكيان اللبناني. لامانس، كما لاحظ الصليبي في ما بعد في كتاب له صدر في 1979 بالتحديد، روج لفكرة لبنان «المجا» التي تلقّتها المراجع الطائفية المؤسسة للكيان بالكثير من الترحاب. كانت كتابة تاريخ لبنان جزءاً من كتابة تاريخ ما حوله. لكن فيليب حتّي سبق الصليبي في كتابة تاريخ لبنان المنفصل في كتابه «لبنان في التاريخ». يحاول حتّي في كتابه جاهداً أن يبرز فضائل الشعب في لبنان بمعزل عن محيطه، لكن أمانته العلميّة تمنعه من الذهاب بعيداً؛ إذ يذكر في مقدّمة كتابه «الإنجازات والإسهامات المميّزة للشعب التي احتلت لبنان» لم يقل شعب لبنان. لم يستطع أن يتحدّث عن «الشعب اللبناني» على مرّ التاريخ» على نسق التاريخ الرسمي اللبناني المبني على صورة الأيديولوجيا التي حكمت فؤاد أفرام البستاني وسعيد عقل وجواد بولس، وغيرهم ممن أفسد عقول الناشئة. هؤلاء مسؤولون عن الأمراض اللبنانيّة المستعصية التي تتجلّى في مسابقات أكبر صحن بطاطا وأكبر صحن كوسى محشي. لكن فيليب حتّي يفقد تلك الأمانة العلميّة عندما يتحدّث عن «الفردية» التي حكمت البلد (ولا يحدّد مساحته تاريخاً العيان للمخيلة الرسميّة كي تطابق حدود الدولة الحديثة على تعميمات المؤرّخ).

أي أنّ أهميّة كتاب «تاريخ لبنان الحديث» لكمال الصليبي، الذي صدر في منتصف الستينيات بالإنكليزيّة، كانت فائقة. وعنها المؤسسة اليمينيّة في جريدة «النهار» ونشرت نسخة عربيّة عن الكتاب، وصاحبته بحملة عارمة أدت فيها دوراً منعاظماً بحكم حجم

كمال الصليبي  
(أرشيف -  
مروان بو  
حيدر)



ناصر البازجي)، لكنّه يتحفّظ عند الوصول إلى اسم يوسف الأسير ليقول إنّه لم يصل إلى «مرتبة» البازجي والبستاني، من دون محاولة فهم الأسباب.

ورواية الصليبي عن الحقبة المعاصرة في تاريخه، مثل القسم المتعلّق بحوادث 1958، التزمت جانب الرجعية اللبنانيّة ووصفت أعمال المعارضة بـ«الإرهابيّة»، كذلك فإنّه لم يتورّع عن استخدام عبارة «الغوغاء المسلمين».

واللافت أنّ تأثير عدوان نشوء إسرائيل وأعمالها الحربيّة لم يشغل الكاتب بتاتاً في الكتاب. ولم يتغيّر كثيراً عبر السنوات عندما وضع كتابه عن الحرب الأهلية في 1976. وكان عدائه السياسي لأنّ الصليبي كان على صداقة وطيدة مع عدد من المنقّبين الفلسطينيين، ومنهم من كان ناشطاً في مسيرة التحرير للمقاومة الفلسطينيّة ظاهراً. وكان تحليله للصراع في لبنان في كتابه نسخة غير معدّلة

عن خطاب بيار الجميل. يكرّر كيف أنّ الزعماء المسلمين كانوا أسرى للمقاومة الفلسطينيّة، وكان المسلمون يفتقرون إلى عنصر القرار الذاتي في تحليله. ولم يكن الصليبي قد توقف في الكتاب المذكور عن إغداق المدائح على النظام اللبناني، فيقول عن لبنان ما قبل الحرب إنّه كان «جمهوريّة ليبراليّة ديموقراطية يشترك في صنع القرار فيها المسلمون والمسيحيون» (ص. 53). لم يُعرض الصليبي الطائفية مفهومًا وممارسة للنقد التاريخي الذي انتهجه الزميل أسامة مقدسي في كتابه «ثقافة الطائفية» (الذي صدر في ترجمة ممتازة عن «دار الآداب»).

المقدسي ينوّه بدور الخارج الاستعماري في صنع الطائفية، ولا يتعاطى معها على أساس عاطفة أو غريزة تؤثر في الجمع.

ظهرت مراجعة الصليبي النقدية الذاتية في 1979 في كتابه «منطلق تاريخ لبنان»، لكن قبل ظهور «بيت بمنازل كثيرة»، يجب التنويه بفريق من المؤرّخين اليساريّين والقوميّين العرب الذين سبقوا الصليبي في تشكيكه في السرديات الطائفية لتاريخ لبنان: أمثال مسعود ضاهر ووجيه كوثراني وحسان حلاق (مع أنّ الأخير «أشرف» على أطروحة دكتوراه للمؤرّخ رستم غزالة) وأحمد بيضون (مع أنّ كتاب الأخير عن رياض الصلح، والكتابة عن الصلح دارجة هذه الأيام، يعتنق السردية الرسميّة مُجدداً) وآخرين كثر في ما بعد. الصليبي يعرض السرديات المختلفة لتاريخ لبنان ويُشكك بصحتها ويقدم التاريخ الموضوعي

دور الجريدة السياسي في لبنان ما قبل الحرب الأهلية. لكن أهميّة الكتاب لا تقلّ عن أهميّة كمال الصليبي وشجاعته في مراجعته النقدية لتاريخ لبنان، ولتاريخه هو بالذات في حقبة لاحقة. ويعترف الصليبي في مقدّمة كتابه بأنّ أستاذه السابق، برنارد لويس نفسه، هو الذي طلب منه وضع الكتاب. ليس ذلك بالأمر العابر. لقد حصل في مرحلة صعود قومي عربي يشكك بالكيانات المصطنعة المجاورة لإسرائيل،

### كيف تحول المؤرّخ من فخر للفكر الأنعزالي إلى بطل عند القوهيين العرب واليساريين

ولويس غير بعيد عن الهوس بمصلحة الدعاية الصهيونيّة في كلّ ما يتصل بالتاريخ المعاصر والحديث للشرق الأوسط، إن لم يكن قبل (أي أنّ مشكلة لويس لا تنحصر بمشاكل الاستشراق التقليدي). إنّ الترويج لكيانيّة لبنان و«أزليّته»، إذا أردنا استعمال مصطلحات فريق إسرائيل في لبنان، يتطابق مع مشروع الترويج للكيان الصهيوني وعلى أسس متشابهة. اختلاق الكيانيّة اللبنانيّة وترسيخها كانا مواتين جداً للفكرة الصهيونيّة التي تحزك برنارد لويس.

لكن كتاب الصليبي يشكو من علل أخرى. الكاتب بقي طوال سني عمره يطلق تعميمات وأوصافاً عن الطوائف اللبنانيّة على أساس أنّها كتل مترابطة. والصليبي لا يختلف مع النهج الاستشراقي المعاصر الذي يرفض فكرة العنبر العلماني، مع أنّه هو انتقل من حامل لفكرة الطائفية «البناءة»، على قول كمال يوسف الحاج، إلى شطب مذهبه عن الهوية. ويبرز «المسيحي» في رواية الصليبي مختلفاً عن أقرانه ومتميّزاً عنهم، فيقول في الكتاب المذكور: «المثقف المسيحي اللبناني، الذي عاش في ظروف سهلة نسبياً، لم يعان التوتر الذي عاناه التركي والمصري والسوري وحتى اللبناني المسلم (لاحظوا أنّ الصليبي لم يقل كلمة «عربي» في المقطع ص. 143، ترجمتي عن النسخة الإنكليزيّة). ويسهب الصليبي في تعداد فضائل كتاب عصر النهضة «المسيحيين» (وينسب كتابات «فلسفيّة» لا وجود لها إلى

رئيس التحرير إبراهيم الأمين ■ محيرا التحرير إيلي شلهوب، بيار ابي صعب  
سكرتير التحرير وفيق فاصوه ■ العالم بشير البكر ■ افتصاد محمد زبيب  
وحدة الأبحاث عمر نشابة  
المدير الفني إميل منعم

الزخار

تأسست عام 1953  
تصدر عن شركة «خيار بيروت»

رئيس التحرير المؤسس  
جوزيف سماحة  
(2006-2007)

مستشار مجلس التحرير  
أنسي الحاج

الاعلانات Tree Ad 01/61115-03/252224  
التوزيع شركة اللواك 15-01/666314-03/828381

رئيس مجلس الإدارة والمدير المسؤول إبراهيم الأمين  
المكاتب بيروت - فردان - شارع دوان - سنتر كونيورد - الطابق  
السادس ■ تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب. 5963/113  
www.al-akhbar.com